مقابلة الآداب : ٤

توارد الخواطر

بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الاجانب

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

من مدة طالت اكثر مما كنا نؤمل ، تكلمنا عن مقابلة الآداب : ماهيتها [١] ، وضرورة درسها في هذا العصر [٢] ، وقد شرعت آداب الامم المختلفة تتجاور اكثر من ذي قبل ، ويؤثر بعضها في بعض على شكل يدفع الى الاطمئنان حيناً ، والى القلق احياناً . اذ نخشى على شخصية ادبنا القومي من الاضمحلال في ذاك المزيج الغريب الذي يأخذ من ادب كل امة بطرف ، فيحور ويبدل ، حتى ينتج ادباً جديداً يكون كلًّا للكل ، يتأنس ببعضه الجميع ، ولا يتأنس بجميعه احد . وهو ما يسميه النابهون من نقّاد فرنسة اليوم «بالادب العالمي» ويعنون به دارسين تأثيره في ادبهم الشخصي . ولدرس مقابلة الآداب عمل مفيد في تعيين حدود هذا الادب العالمي ، وتمييزه عن الادب القومي الخاص بامة من الامم ، مع الاشارة الى كل موضوع مشترك بين المفكرين .

الى هذه الغاية رمينا في المقدمات السابقة . وقد اوردنا بعض الامثلة على توارد الخواطر بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الاجانب ، حاصرين ذاك التوارد في موضوع «الانسان» وصفاته وخصوصاً عظمته ومسكنته . [٣]

الحياة والموت

ولم تكن حياة هذا المخلوق العجيب ، وعذاباته ، وموته ، لتقلّ عن ماهيته تأثيراً في ادباء الامم المختلفة ، فتناولوها بالبحث ايضاً ، كما تناولوا الانسان ،

١) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ٢١-٢٦)
٢) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ١٠٩-١١٥)
٣) راجع المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ٢٠٠-٢٠٤)

واتفقوا ، عن غير قصد ، في كثير من آرائهم .

وهم لا يشعرون بالحياة الّا اذا كانت مرّة ، ثقيلة الوطأة عليهم ، فيئنون تحت عبئها ، ويتظلّمون ، ويتشكّون . والشعراء يحبّون التشكّي والتذمّر لكل سبب ، ولغير سبب . لأن التشكّي يضرب على وترٍ حسّاس يسلاقي صداه في جميع الافئدة ؛ اذ قلّ من الناس من لم يعاكسه دهره في بعض امانيه . والدهر كلمة مطّاطة المعنى ، غامضة التحديد ، تمثّل كل ما في حياتنا من عذاب وشقاء ، يهرب منه الانسان فلا يُفلته ، ويخفض له الجانب فلا يرقّ له ، ويهاجمه بشتائمه ولعناته فيضحك منه مقهقهاً ويمضي في صروفه . حتى يحار المرء في حياته ، ويئن من عذابها قائلاً مع من ذكرهم سفر الحكمة :

«إنّ حياتنا شنيّة قصيرة . . . إنما حياتنا ظلٌّ يمضي . . .»(١

على ان هذا القصر كان مدعاةً الى العزاء عند بعض البائسين كما كتبت مدام دي سيڤينيه الى ابن عمها :

« *La vie est courte, mon cher cousin : c'est la consolation des misérables* »(٢

وقال ايوب البارّ :

« ان حياة الانسان على الارض تجنّدٌ وكأيّام أجير أيّامه . مثل العبد المشتاق الى الظلّ ، والاجير المنتظر أجرته . . . . لا ألبث ان أضجع في التراب ، فتبكّر في طلبي فلا أكون . » (٣

اما هذا الظلّ الذي يصبو اليه ويشتاقه ، فما هو سوى ظلّ الموت المريح من متاعب الحياة . وقد تردّدت هذه الصورة في الشعر العالمي من عربي وأجنبي ، تارةً يرافقها بعض التلميح الى اساطير الاقدمين كما في قول رونسار :

Par les ombres myrteux, je prendray mon repos (٤

---

١) سفر الحكمة ٢ : ١ ، ٥

٢) M^me^ de Sévigné, *à de Bussy, le 15 Décembre 1681*

٣) سفر ايوب ٧ : ١ ، ٢ ، ٢١

٤) Ronsard, *Sonnets pour Hélène, II, 42*

وطوراً تتجسَّم فتُصبح جناحاً ، كما جاء في الاوپرا الشهيرة فوست :

O mort ! quand viendras - tu m'abriter sous ton aile ?

وقد جمع الشاعر العربي الظلَّ والجناح فقال :

ورنّقت المنيةُ فيه ظلَّاً على الابطالِ دانيةُ الجناحِ

ذكره الزمخشري في أساس البلاغة معجباً ، وشرحه قائلاً : « فيه بيان جلي ان ترنيق المنية مستعار من ترنيق الطائر (اذا رفرف وخفق بجناحيه) حيث جعل المنية كبعض الطير المرنّقة بان وصفها بوصفه من التظليل ودنوّ الجناح . »

واكثر ما يكون استعمال هذه الاستعارات للموت في الحرب ، حيث يخيّم النقع على المتحاربين ، فيُصبح للحمام استار وحجب . قال هوميروس واصفاً موت بطل في النشيد السادس عشر من الالياذة :

ومن ثمَّ اغمدَ اغساسه وانمض عينيه سترُ المَنونْ (١

ومن صور الموت ايضاً تلك الكأس الدائرة على جميع الناس . وقد رسمها الشعراء والمؤلفون في كل عصر ومكان . واقوالهم اكثر من ان يمكننا ايرادها كلها ، فنكتفي بقول المهلهل :

ما ارتجي في العيش بعد نُداما ي ، أرامُ سُقوا بكأس حِلاقِ (٢

وقول المعرّي :

كأس المنيَّة اولى بي ، واروح لي من ان اكابدَ إثراءً وإحواجا !

وقول المتنبي راثياً جدّته :

احنّ الى الكأس التي شربت بها ، واهوى لثواها التراب وما ضمّا (٣

وقد توسّعوا في الصورة احياناً فجعلوا كأساً لكل ما يصادف الانسان من الخير والشر ، فذكر صاحب المزامير كأساً بيد الله سبحانه . وجعل هوميروس لدى زَفس ، اكبر آلهة اليونان ، قارورتين يسقي منهما العباد واحدة مملوءة

١) سليمان البستاني : الالياذة ، ص ٨٣٩

٢) اطلب الروائع (٣ [المهلهل] ٣٠)

٣) اطلب الروائع (١٢ [المتنبي] ٢)

شرًّا والاخرى خيرًا[1] ، الى غير ذلك مما ورد في الشعر الاجنبي عن كأس الحياة ، وكأس الملذّات ، وانه ليتبادر الى الذهن ، عند ذكر الكأس ، بيت عنترة :

لا تسقني كأس الحياة بذلّة بل فاسقني بالعز كأسَ الحنظلِ

* * *

اما كون الموت يريح الناس فمُستفاد من ان الحياة كلها تعب وشقاء . وهو موضوع آخر يمكننا تسميته بعالمي . وقد رأيناه في التوراة ، وكذلك ورد في الانجيل ، وتردَّد في القرآن ، واشار اليه هوميروس في النشيد العاشر من الالياذة[2] ولا يتسع المجال لتعداد الشواهد ، فنكتفي بذكر قول ابي العلاء :

تعبٌ كلها الحياةُ ! فما اعـ ـجبُ إلّا من طامعٍ في ازديادِ!

فلا غرو اذًا ان فتش من رأوها ثقيلة الوطأة ، عن التخلّص منها . وقد يبلغ بهم اليأس الى تمنّي عدم الوجود ، كما فعل ايوب الصديق اذ قال :

« لا كان نهار ولدت فيه ، ولا ليل قيل فيه قد حُبل برجل . ليكن ذلك النهارُ ظلامًا ولا رعاه الله من فوق ولا اشرق عليه نور . . . »

وهو يتوسّع في المعنى توسّعًا رائعًا حتى يصل الى قوله :

« هلّا فاضت روحي عند خروجي من البطن ! لماذا صادفت رُكبتين تقبلاني او ثديين يرضعاني ؟ اذًا لكنت الآن أضجع فأسكن ، ولكنت أنام فاستريح . » [3]

وقد جعل هوميروس تمنيات من هذا النوع على لسان هيلانة ، مسببة حرب طروادة ، وذلك في النشيد الثالث من الالياذة[4] ، فقالت :

« . . . كلّ الشرور والرزايا الدمُ من اجلي تثور
آه لو كانت رحى الريح تدور
يوم ميلادي ، وتثارُ الأوارُ للجبال الشمّ بي كالمطر طارْ
او أُرمى في فوق امواج البحارْ »

---

١) الالياذة : النشيد الرابع والعشرون ، ص : ١١٣١
٢) الالياذة ، ص ٥٩٦
٣) سفر ايوب ٣ : ٣-١٤
٤) ص ٦٦٧

وكذلك ما جاء في القرآن عن لسان مريم :

« ليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسياً . » (١

وقال احد شعراء الفرس ما ترجمته :

ليت امي لم تضعني ، او اذا وضعتني ليتني لم أُرْضَع (٢

على انه لمَّا لم تكن فائدة من هذه التمنيات ، حوّل مبغضو الحياة وجههم شطر حلٍّ آخر وهو الموت ، فطلبوه بكل ما في عواطفهم من قوّة تأثير ، وبكل ما في لغاتهم من جمال وفنّ .

قال ابو العلاء :

رقدة الموت ضجعة يستريح ال جسم فيها ، والعيشُ مثل السُّهادِ !

وقد عبّر عن المعنى نفسه تيوفيل غوتيه بصورة رائعة قال :

Dieu, pour nous reposer dans les déserts du temps,

Comme des oasis, a mis des cimetières;

Couchez-vous et dormez, voyageurs haletants ! (٣

وفي المعنى نفسه ما كتبه سكارون واراد ان يحفر على قبره :

Passant, ne fais icy de bruict !

Garde que ton pas ne l'éveille,

Car voicy la première nuict

Que le pauvre Scarron sommeille ! (٤

وقال برناردن دي سان پيير :

« *Elle (la mort) est la nuit de ce jour inquiet qu'on appelle la vie.* »(٥

---

١) القرآن (١٩ [مريم] ٢٣)

٢) تعريب سليمان البستاني : الالياذة ، ص ٤٦٨

٣) Th. Gautier, *La Caravane.*

٤) Scarron, *son épitaphe par lui - même.*

٥) Bernardin de S^t^ Pierre, *Paul et Virginie*

وظهر الموت لليكونت دي ليل فاستقبله قائلًا ؛ وما اشبهه ببيت المعرّي المذكور اعلاه :

Affranchis - nous du temps, du nombre et de l'espace,
Et rends-nous le repos que la vie a troublé.(١)

وحيّاه لامرتين كما يحيي اعزّ المخلصين فصاح :

Je te salue, ô mort, libérateur céleste,
Tu ne m'apparais point sous cet aspect funeste
Que l'a prêté longtemps l'épouvante ou l'erreur. (٢)

وكذلك هتف اندري شينيه :

Vienne, vienne la mort ! que la mort me délivre !(٣)

وما ذاك الّا لان الموت يُفقد الانسان اوجاعه وآلامه الطويلة مـا طالت الحياة ، كما يقول ابو العلاء :

لعل موتًا يريح الجسمَ من نَصَبٍ ! إن العنـاء بهذا العيش مقترنُ !

وكذلك قوله :

متى غدوت ببطنِ الارض مضطجعًا ، فمَّ افقـد اوصـابي واسراني !

وهو يشبه قول جوزف سورّن :

Mourir est un instant, vivre est un long supplice.(٤)

وعلى نحو ما تقدّم قول غريتـه :

La douleur est un siècle et la mort un moment.(٥)

وهنا يجدر بنا القول ان ابا العلاء رأى من فوائد الموت ما لم يرَه غيره ،

---

(١) Lecoute de Lisle, *A la mort.*
(٢) Lamartine, 1^re^ *méditations poétiques, V. L'Immortalité.*
(٣) André Chénier, *Dernières poésies, VII.*
(٤) Joseph Saurin, *Beverlei, Acte V, Sc. 5.*
(٥) Gresset, *Épitre à ma sœur sur ma convalescence, v.92.*

اذ قال انه يخلصنا حتى من الاهتمام بشؤوننا المادية فنصبح غير محتاجين الى شيء ولا الى احد . وهذا كلامه :

اصبح في لحدي على وحدتي لست الى الدنيا بمحتاج

. . .

العيش افقر منا كلَّ ذات غنى والموت اغنى بحقٍّ كلَّ محتاج

. . .

لكونُ خلقك في رسمٍ اعزَّ له من ان يكونَ مليكًا عاقدَ التاج
الملك يحتاج آلافًا تناصره والميت ليس الى خلقٍ بمحتاج

وهو ما عبَّر عنه ابو العتاهية بقوله:

ما أكثرَ الفوتَ لمن يموتُ !

* * *

ومما يَلفت النظر ان اكثر من يتمنون الموت ، او يستخفّون بقدره ، يعبرون عنه بلفظ «النوم» و«الرقاد» وعن الحياة «بالسهاد» ، كما وردت عند ابي العلاء ، وبرناردن دي سان پيير ، وتيوفيل غوتيه.

وهذا الفرد دي ڤيني اذ يطلب الموت على لسان «موسى» يستعمل التعبير نفسه فيقول مخاطباً الله :

O Seigneur ! j'ai vécu puissant et solitaire.

Laissez - moi m'endormir du sommeil de la terre ![1]

حتى ان ابا العلاء جعل بين الموت والنوم قرابةً ، فقال :

وبين الردى والنوم قربى ونسبةٌ وشأنٍ برى للنفوس وإعلالُ

ولم تخفَ هذه القرابة على الاقدمين ، فقال سقراط ان الموت اخو الرقاد ، وقال مثله قرجيل ، ومثله قول العرب: «الموت اخو النوم» . ومن امثالهم في الرجل اذا مات: «نام نومةً بلا حُلم»

اما هوميروس فقد جعل النوم والموت اخوين في النشيد الرابع عشر من الياذته فقال عن هيرا:

فبها قرَّت بمثلِ البشر اذ لفيت فيها اخا الموت الرقاد

(١) A. de Vigny, *Livre mystique, Moise.*

ولم يكتفِ حتى جعلها توأمين ، بعد ذلك بنشيدين ، فقال:

لأسرع قادةٍ كلّ العباد الى الترأمين : الردى والرُقاد

ولما كان لكل شيء ضدّ ، رأينا غير من تقدّم ذكرهم من الادباء والشعراء يعكسون الاعتبار ، فيجعلون الحياة نوماً والموت يقظة . قال ابو الحسن التهامي:

العيش نومٌ ، والمنية يقظةٌ والمرء بينهما خيالٌ سارِ

وما اشبهه بقول لابرويير ! وها هو بحرفه:

« *La vie est un sommeil ; les vieillards sont ceux dont le sommeil a été plus long ; ils ne commencent à se réveiller que quand il faut mourir.* »[1]

ولكل اعتبار وجهه من الصواب كما يتضح للمتأمل . ولكننا نلاحظ ان تصوير الموت باليقظة يكثر خصوصاً في القصائد الرثائية او العاطفية ، التي يطمح فيها الانسان الى التشوّف الى ما وراء هذا الحجاب المسدل على حياتنا الضيّقة ، فيتمتع بالانوار الازلية .

* * *

غير ان الموت ما كان ليُجيب من يدعوه ، او يترك من يُعرض عنه ، اذا لم يشأ ذلك مقدّر الآجال . فهو غاية كلّ حيّ يسير اليها الانسان من نفسه ، وتدفعه نحوها خطواته على الرغم منه ، فكل مولود رهن الفناء ، كما قال ابن سيراخ :

« كل جسد يبلى مثل الثوب لان العهد من البدء انه يموت موتاً » (٢

وكما قال ابو العتاهية :

لدوا للموت ، وابنوا للخراب!

وكما قال غوتيه :

Naître, c'est seulement commencer à mourir.[3]

(١ La Bruyère, *Les Caractères, XI.*

(٢ ابن سيراخ (١٤ : ١٨)

(٣ Th. Gautier, *Poésies, Espana, L'Horloge.*

وكل لحظة من الحياة تقرّبه الى تلك الغاية على نحو قول كورنيل:

Chaque instant de la vie est un pas vers la mort.(١)

فالموت هدف يجري اليه الجميع ، لا فرق بين طويل العمر وقصيره . قال الابيرد الرياحي:

وكل امرئ يوماً سيلقى حِمامه وان نأت الدعوى وطال به العمر

ومثله كثير في اقوال طرفة ، وكعب بن زهير ، والمتنبي ، وابي العتاهية. وليس مناصٌ من ذلك. قال هوميروس في النشيد الخامس عشر:

وهل من سبيلٍ دافعٍ غُصص الردى عن الخلق ، ما استدّت حياةُ الملائكِ!

وقال في النشيد الثاني عشر:

لكنما الموت منه لا مناصَ ، وقد يأتي بأيّ سبيلٍ كان او سببِ

وهو من المعاني المطروقة كثيراً في الشعر العربي. ولعلّ اقرب ما قيل فيه الى بيت هوميروس قولهم:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعدّدت الاسباب والموتُ واحدُ

اذاً فالموت محتّمٌ على جميع الاحياء دون استثناء! فهم لدى هيأته كاوراق الشجر لدى الريح الهوجاء تعصف فتدهورها في الهواء ، وتلقيها جافّة بالية. وذلك قول عديّ بن زيد:

ثم اضحوا كأنهم ورق جَـ ـفَّ فألوت به الصَبا والدَبورُ

وقول ربيعة بن مقروم:

واضحت بتياء اجسادُهم يشبّهها من رآها الشيا

وقول يزيد بن الحكيم:

ما عذرُ من هو للمنون وريبها غرضٌ رجيمْ
ويرى القرونَ أمامه هدراً كما هد الهشيم!

(١) Corneille, *Tite et Bérénice*, V. 1.

وقد قال ابن سيراخ في ذلك ، ذاكراً من يولد ايضاً ، متخذاً التشبيه نفسه :

« فكما ان اوراق شجرة كثيفة بعضها يسقط ، وبعضها ينبت ، كذلك جيل اللحم والدم بعضهم يموت وبعضهم يولد . » (١

وهو يكاد يكون اختصاراً لقول هوميروس في النشيد السادس من الالياذة :

فقال : « علامَ اقتصتَ المَبَرْ وغن كأوراق هذي الشَجَرْ
فبعضاً بييدُ الهواء ، وبعضُ على منبتٍ بانبتِ النبتِ غضُّ
فتي كل عامٍ نباتٌ أبيدا به الغاب تُنمي ربيعاً جديدا
وكلٌّ على إثرِ كلِّ مشى فجيلٌ تلاشى وجيل نشا ! »

اما ذاك الوقت وتلك الساعة فلا يعلمها احد . وليس في مقدور الانسان ان يؤخر او يقدم اجله ثانيةً واحدة : « فاذا جاء أجلُهم لا يستقدمون ساعةً ولا يستأخرون »(٢ لانه كما يقول ابو العلاء :

لكل نفسٍ من الردى سببٌ لا يومها بعده ولا غدها !

ولا ينجيها من ذلك هرب لان « الموت ، على قول علي بن ابي طالب ، طالبٌ حثيث لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب »

ومما اروع قول ابي الطمحان في تصوير ان الموت يدرك الانسان حيث كان لا تمنعه حصون ولا تدفع عنه حرّاس ، قال ذاكراً قصر ريمان المشهور بمناعته في اليمن :

ولو كنت في رَيْمانَ يحرس بابَه أراجيلُ أحبوشٍ وأغضفُ آلفُ
اذاً لأتتني حيث كنت منيّتي يخبّ بها هادٍ الى الموت قائفُ !

ونحن لا نُعدم وجود هذه الصورة في الادب الفرنسي بعد ان نقطع عشرة قرون ، فنستبدل بقصر ريمان قصر اللوفر ، وحرسه برجال الحبش ، فنسمع مالرب يقول ما يترجم تماماً صورة ابي الطمحان :

Le pauvre en sa cabane, où le chaume le couvre,

Est sujet à ses lois ;

---

١) (ابن سيراخ : ١٤ : ١٩)
٢) القرآن (٧ [الاعراف] ٣٤)

Et la garde qui veille aux barrières du Louvre
N'en défend point nos rois.[1]

* * *

اما ما يحدث لدى ذكر الاموات ، بين بني قومهم ، فهو ما تدلنا عليه ايضاً وحدة الطبيعة البشرية المماثلة في جميع العصور والامصار . فان بعض اهلهم من رقيقي القلوب يبكونهم بكاء الخنساء اخويها ، وام عكتور ولدها . اما سائر الاصحاب والمعارف فسرعان ما ينسون موتاهم ، وسرعان ما تجف مآقيهم لطول الغيبة وما ذلك الّا للسبب الذي دفع الفرنسويين الى قول المثل المعروف (*Loin des yeux, loin du cœur*) وكأنه ترجمة حرفية لبيت ابي نواس .

ومن غاب عن العين فقد غاب عن القلب

قال ڤيكتور هوغو في هذا النسيان :

Les morts durent bien peu. laissons - les sous la pierre !
Hélas ! dans le cercueil, ils tombent en poussière
Moins vite qu'en nos cœurs![2]

وقال جيلبر :

Au banquet de la vie, infortuné convive.
J'apparus un jour, et je meurs.
Je meurs, et sur la tombe, où lentement j'arrive,
Nul ne viendra verser un pleur.[3]

وما اشبه القولين بقول ابي العتاهية :

اذا ما انقضت عني من الدهر ليلةٌ فان عزاء الباكيات قليلُ
سيُمرَض عن ذكري ، وتنسى مودتي ويحدثُ بعدي للخليلِ خليلُ !

---

(١) Malherbe, *Stances à du Perrier.*
(٢) V. Hugo, *Feuilles d'Automne*, 6.
(٣) Gilbert, *Adieux à la vie. Ode IX.*